

التقاليد الأسرية والرواية التاريخية مثال الأسرة الرّيبيرية

مسعود الكوري

جامعة منوبة/جامعة باريس I السوربون

يطرح هذا الموضوع إشكالية الترابط بين ما هو اجتماعي وما هو ثقافي- معرفي، من حيث أن الأسرة باعتبارها تنظيماً اجتماعياً مبنياً على منظومة القرابة وروابط الدم، معتمدة على الأنساب في تسلسلها وتواصلها، والرواية باعتبارها آلية لنقل الخبر والمعرفة بشكل عام، مرتكزة على الشفوي المنقول عبر سلاسل من الرواة وفق تقنيات محددة ومضبوطة. لكن النموذجين يشتركان في طريقة التواصل التي في الغالب يحددها النسب، فتسلسل الرواية من تسلسل النسب، أي داخل نفس المنظومة القرابية. وهو ما يؤكد إلى حد ما على الترابط البنوي بين النسب والمعرفة ثم أشكال انتقالها، مع أن ذلك لا ينفى بالضرورة انتقالها خارج هذه الأطر الاجتماعية، رغم أن ما يغلب في خصوص الثقافة العربية الإسلامية، هو أن الأطر الاجتماعية قد لعبت دوراً هاماً في قوالب المعرفة وانتقالها، على الأقل في بدايات التاريخ العربي الإسلامي.

بالعودة إلى الاشتقاق المعجمي نلاحظ أن الرواية باعتبارها شكلاً من أشكال انتقال المعرفة وتداول الأخبار بشكل عام، وبوصفها خاصية من خصائص التاريخ العربي الإسلامي بشكل خاص، فهي في معناها اللغوي تؤدي معنى نقل أو حمل الماء¹، ومنها نقل الأخبار والمعرفة بالإضافة إلى تقنية رواية الشعر والحديث. وهو ما يعطي بالتالي الراوي أو الناقل دوراً

¹ جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، 1997، مادة "روي"، ج 3، ص 153-151.

هاما وأساسيا في إيصال المعلومة وتناقلها وخاصة في مجال الشعر عند العرب قبل الإسلام وفي بدايته كل ذلك سوف يساهم في ظهور تقاليد روائية وإخبارية مثلت شكلا من أشكال الثقافة الشفوية، وهكذا تكون الرواية بمثابة نقل نص مكتوب بطريقة شفوية، لتتحول بالتالي إلى خاصية من خصائص العلوم الإسلامية¹، وتبنى عليها المعرفة وترتسم هيكلية النص في مستوى الشكل ومصاديقته في مستوى المضمون. هذا بالإضافة إلى دور النسب عند العرب قبل الإسلام وبعده، باعتباره الفاصل بين الفئات الاجتماعية والمانح للأدوار الاجتماعية والسياسية المتقدمة أو الأكثر أهمية.

في هذا الإطار يبدو من الصعب الحديث عن أسر أو عائلات في المطلق لأن المسألة تبدو دقيقة، وحتى نتلافى السقوط في التعميم والسطحية كان اختيارنا لمثال الأسرة الزبيرية نموذجا لهذه العلاقة بين الثقافي-المعرفي والاجتماعي-القرابي. وقد يجد ذلك مبررات عدة من بينها موقع هذه الأسرة من أحداث صدر الإسلام بحكم انتمائها إلى النخب الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة، هذا بالإضافة إلى ما تتمتع به من رمزية هامة ومساهمة في تأسيس الدولة العربية الإسلامية. كما أن للقرابة من الرسول محمد، دور هام في خلق رصيد رمزي من ناحية وفي تشكل معرفة دقيقة ببدايات التاريخ الإسلامي من ناحية ثانية. وأبرز هذه الشخصيات صفة بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام وعمة الرسول محمد، ثم خديجة بنت خويلد زوجة النبي وعمة الزبير بن العوام، ومن الجهة الأمومية أسماء بنت أبي بكر الصديق أمه، وأختها عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي²، وما كان لها من دور في التاريخ الإسلامي وكذلك علاقتها المتميزة بالزبيريين. وهي كما يبدو وضعية اجتماعية ملائمة للإحاطة بكل الأخبار التي تخص الدولة الإسلامية الناشئة، هذا بالإضافة إلى مصاهرات وعلاقات زواج مع أسر قيادية أخرى مثل العلويين والأمويين وغيرهم.

¹ Stefan LEDER, « Riwāya », *EP*, t. 8, pp. 563-564.

² جابر البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ج 2، ص 46: "وقال أبو مسعود، قال ابن أبي الأجلح، عن أبيه، عن عامر قال: قيل لعائشة: يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقينته عن رسول الله، وكذلك الحلال والحرام، وهذا الشعر والنسب أحاديث الناس سمعناها من أبيك وغيره، فما بال الطنب؟ قالت: كانت الوفود تأتي رسول الله، فلا يزال الرجل يشكو علة به فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك. فحفظت ما كان يصفه لهم، وفهمته وحفظته".

يدفعنا كل ذلك إلى طرح ما تقدم من استنتاجات في شكل تمفصل إشكالي يحتوي هذه المسألة ويؤطرها، لذلك حاولنا صياغته على النحو التالي: هل أن الأسرة باعتبارها مؤسسة اجتماعية قد مثلت مجالا وإطارا حاويا لانتقال المعرفة أم أن دورها قد اقتصر على ما هو اجتماعي وسياسي؟ وإلى أي مدى نجح الزبيريون في إرساء تقاليد لانتقال المعرفة عوضت الفشل السياسي وحافظت على المكانة الاجتماعية؟

I- تقاليد المعرفة عند الزبيريين: التأسيس

قد تعتبر كلمة تأسيس مبالغا فيها إلى حد ما، حيث أن العمل التأسيسي عادة ما يحتمل معنى الخلق والابتكار أو كذلك معنى الولادة في علاقة بأصل الأشياء، لكن ذلك لا يمنع أن نستعمل أو نستعير المصطلح في هذه الحالة للتعبير عن ملاسبات نشأة مثل هذه التقاليد.

في البداية يمكن أن نشير وانطلاقا من ملاحظة شكلية، إلى كثرة الإسناد في جلّ المصادر للزبيريين، حيث تقريبا لا يكاد يخلو مصدر إن لم نقل رواية من إسناد زبيري خاصة عروة بن الزبير وابنه هشام بن عروة والعديد من الزبيريين، وهو ما تجسده بعض العبارات من قبيل: "قال بعض الزبيريين"¹. كما نضيف عاملا أساسيا يخص هذه الأسرة ألا وهو الترابط والتواصل بين الأجيال² في حملها للمعرفة لما يزيد عن قرن من الزمن؛ من عروة بن الزبير (ت 94هـ/713م) مؤسس "مدرسة المغازي" بالمدينة إلى الزبير بن بكار بن المصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (ت 256هـ/769م) بكتابه **جمهرة نسب قريش وأخبارها، والأخبار الموفقيات** وعديد الكتب الأخرى المنسوبة إليه، ولكنها لم تصلنا وإنما نعرفها عن طريق مصادر القرن الثالث. وهكذا تتجاوز تقاليد المعرفة عند الزبيريين حدّ التقاليد الأسرية لتصبح بالتالي معبرة عن المكانة الاجتماعية أي بمعنى الشرف الاجتماعي.

¹ نفس المصدر، ج 1، ص 236.

² نفس المصدر، ج 2، ص 47: "حدثنا عبد الله بن صالح المقرئ، ثنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن عروة عن عائشة أنها أنشدت بيت لبيد: ذهب الذي يعيش في أكتافهم * وبقيت في خلف جلد الأجر، فقالت: رحم الله لبيدا، فكيف لو رأى هذا الزمان؟ فقال عروة: وأنا أقول: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو رأت هذا الزمان؟ وقال هشام: رحم الله عروة، فكيف لو رأى هذا الزمان؟ وقال حماد رحمه الله، فكيف لو رأوا زماننا هذا؟". وقد لا تعني كثيرا صحة الرواية من عدمها، بل المهم أن نقف على هذا التواتر في الرواية وفي سلاسل الإسناد بما يمثل رابطا بين الأجيال إلى أن يصبح بمثابة التراث الأسري ويأخذ ذلك البعد الرمزي الذي يتحول عبر مرور الزمن إلى رصيد ثقافي.

يمكن وضع هذه التقاليد داخل سياق نسبي قرابي يوطرها ويعطيها طابعها التاريخي، حيث "تمثل بُنى القرابة في المجتمعات القبلية والعائلية قنوات مرور التراث سواء كان اقتصاديا سياسيا أو علميا، وليس من النادر أن نرى ما يشبه الاختصاص العائلي مما يجعل صورة الابن تطابق أحيانا صورة والده"¹، وفي سياق مشابه لكنه مختلف من حيث زاوية النظر، يعتبر عبد العزيز الدوري أن اهتمام العرب قبل الإسلام بالأيام والأنساب وروايتهم لها وما يتعلق بها من أخبار وشعر يتصل في النهاية بالأراء الاجتماعية السائدة لديهم حول الحسب والنسب، ومن المنتظر أن تكون هذه الروايات شفوية تناسبا مع الوضع الثقافي السائد. ويضيف بأن "القصص والأخبار التي كانت تروى كانت ملكا مشتركا للعائلة أو القبيلة، تتداول في الوسط الاجتماعي ولم تكن من اختصاص الأفراد، وكانت تؤلف جزءا من الثقافة العامة"². فالعلاقة بين الثقافي والاجتماعي كما يبدو خاضعة لنسق بنيوي يحدد تركيباتها، وربما يكون الاجتماعي هو المحدد وما الثقافي إلا إفراز من إفرازاته وشكل من أشكاله. وهذا قد يدعم فكرة أن الخبر فرع يدخل في مجال الخيال التاريخي إلى حد كبير³، كما أن الأنساب مثلا، من منظور تاريخي، ليست بالضرورة انتماء قرابيا إلى جد أعلى بقدر ما هي انتماء ثقافي رمزي.

نحتاج في توضيح ذلك إلى آليات تحليل أخرى قد تعيننا على مزيد فهم هذه العلاقة، خاصة من الناحية السوسولوجية، لأن تفكيك الظاهرة يقتضي نظرة من الداخل في مستوى مكونات النسيج الاجتماعي، في إطار ما يسمى بالتمشيّ التفهّمي، حيث يقف عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو على أهمية المعطى المعرفي-العلمي في الحفاظ على المكانة الاجتماعية وإعادة إنتاجها، وبالتالي الحفاظ على التفاوت أو التمايز بين الفئات الاجتماعية. فهو يعتبر أن أي فرد يحظى بمكانة اجتماعية متميزة في شكل رأس مال مادي أو رمزي ويحظى باعتراف اجتماعي، يسعى عن وعي أو عن غير وعي إلى نقل هذا الموروث أو التراث (Patrimoine) إلى

¹ محمد سعيد، النسب والقرابة في "المجتمع" العربي قبل الإسلام، دراسة في الجنور التاريخية للإيلاف، دار السنقي، بيروت، 2006، ص 133.

² عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، 2005، ص 115.

³ هشام جعيط، تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص 26.

أبنائه من بعده¹. ويعتبر أيضا أن هذه الظاهرة تشمل كل المجتمعات وهي أساسية في تخليد السلالة والحفاظ على الموروث². وهنا لابد من التعامل مع هذه الفكرة بشيء من النسبية دون الوقوع في الإسقاط على واقع العصر الوسيط لأن المجتمع الأوروبي المعاصر أو حتى الوسيط ليس مجتمع صدر الإسلام بكل خصوصياته التاريخية والاجتماعية. كما أن الاستئناس بالرؤية السوسولوجية أو الأنثروبولوجية ليس مجرد رغبة في إدماج ما هو نظري لإعطاء بعد علمي للبحث، لكن هناك جوانب إنسانية مشتركة بين كل الحضارات والعصور، وفي مختلف المجتمعات التاريخية، لأن الكائن البشري واحد وإنما تتغير الأساليب والآليات. فتغيير زوايا النظر يسمح بتفكيك الظواهر بشكل علمي ومتقاطع مع بقية العلوم، وعلى المؤرخ أن ينقل ذلك إلى مجاله العلمي ليحاول أن يكون عالم اجتماع الماضي أو سوسولوجي المجتمعات التاريخية.

يمكن أن نبدأ في تناولنا لمسألة ترسخ تقاليد الرواية والكتابة التاريخية عند الزبيريين بالوقوف عند أقدم أعلام المعرفة في هذه الأسرة وهو عروة بن الزبير بن العوام الذي توفي في نهاية القرن الأول للهجرة، في سنة 94هـ/713م، حسب أغلب المصادر³. وهو يمثل المرجعية الأولى لهذه الأسرة في خصوص إتيان المعرفة وفي علاقة ببدايات كتابة التاريخ العربي- الإسلامي بشكل عام⁴. فقد كان قريبا من أحداث القرن الأول للهجرة ومعاصرا لجزء كبير منه، ملما بجوانب عديدة من الحياة العلمية في زمنه. وقد تعرّض المؤرخون إلى هذه الشخصية العلمية عند دراستهم لإشكالية التدوين وأقدم المصادر في التاريخ العربي الإسلامي، واعتبرت روايات عروة بن الزبير تأسيسا "لمدرسة المغازي" وهي بذلك قد

¹ Pierre BOURDIEU, *La reproduction. Éléments pour une théorie du système d'enseignement*, Paris, Minuit 1970, pp. 25-26. Voir aussi, Christiane CHAUVIRÉ et Olivier FONTAINE, *Le vocabulaire de Bourdieu*, Paris, Ellipses, 2003, p.60.

² *Ibid.*

³ جابر البلاذري، المرجع المذكور، ج 9، ص 443. محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1974، ج 5، ص 182.

⁴ Gregor SCHOELER, «Urwa B. al-Zubayr», *EP*, t. 10, p. 596 : « l'érudition occidentale de très bonne heure vit déjà en lui le 'père de l'école historique de Médecine' ».

اعتبرت أول "مدرسة تاريخية". ويؤكد الدوري على أن عروة بن الزبير هو مؤسسها بمعنيّة تلميذه الزهري¹. وربما كان من الطبيعي أن تكون هذه النخب مضطلة بدور هام على المستوى العلمي لأسباب سياسية واجتماعية وتكون بالتالي محتكرة للمعرفة نظرا لأهميتها ولما تتطلبه من رفاة اجتماعي من جهة، وكذلك باعتبار أن هذه المعرفة هي معرفة تاريخية بالأساس تخص جزءا من تاريخ هذه النخب². فقد كانت هذه النخب هي الفاعلة في الفترة التأسيسية من تاريخ الإسلام، حيث يعتبر هشام جعيط أن نشأة كبار العلماء المعترف بهم من أصل قرشي في المدينة، يعود إلى كون هذا الوسط هو المكان الذي طبخت فيه المعرفة التاريخية حول الرسول، إذ أن تاريخه هو تاريخ آبائهم³. وهو ما يجسده قول الزهري عندما سئل عن مصادر رواياته: "...قيل للزهري زعموا أنك لا تحدث عن الموالي؟ فقال: إني لأحدث عنهم، ولكنني إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار فما أصنع بغيرهم؟"⁴. فهذه النخب كانت مصدر الخبر ولبنة الكتابة التاريخية العربية الإسلامية، وربما لذلك كانت الكتابة نخبوية ولا تهتم إلا بالنخب الاجتماعية، وهو ما يبدو طبيعيا إلى حد ما بحكم طبيعة المجتمع وبالتالي طبيعة المعرفة. كما أن شخصية عروة بن الزبير تعتبر حجة في مجال المعرفة التاريخية بالنسبة للفترة التأسيسية خصوصا، ولذلك يتم الاستشهاد بها إما تبريرا أو توظيفا.

يعتبر أغلب المؤرخين أن عروة بن الزبير من الأوائل الذين كتبوا في السيرة النبوية⁵، فما وصلنا عنه يعد من أقدم الوثائق التاريخية، فتلك الرسالة

¹ عبد العزيز الدوري، المرجع المذكور، ص 115.

² أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، دت، ص 18. وهذه الرواية التي يذكرها عن الزهري أحد تلامذة عروة بن الزبير، تبين التصاق التاريخ الأسري بالتاريخ العام، فتاريخ النخب هو تاريخ الإسلام والعكس كذلك صحيح: "...عن الزهري قال: دخل عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ أمير المدينة، فجرى بينهم الحديث، حتى قال عروة في شيء جرى من ذكر عائشة وابن الزبير: سمعت عائشة تقول: ما أحببت أحدا حبتي عبد الله بن الزبير، لا أعني رسول الله ولا أباي. فقال عمر: إنكم لتنتحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لأحد معه فيها نصيبا. قال عروة: لقد كان عبد الله منها بحيث وضعته الرّحم والمودة التي لا يشرك أحدا منهما عند صاحبه فيها أحد. فقال له عمر: كذبت. فقال له عروة: هذا - يعني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - يعلم أنني غير كاذب، وإن أكذب الكاذبين، لمن كذب الصادقين...".

³ هشام جعيط، المرجع المذكور، ص 34.

⁴ جابر البلاذري، المصدر المذكور، ج 10، ص 48.

⁵ Alfred-Louis DE PRÉMARE, *Les fondations de l'islam. Entre écriture et histoire*, Seuil, 2002, p. 14.

مثلا التي بعث بها إلى عبد الملك بن مروان بعد موت أخيه عبد الله بن الزبير الخليفة المعارض في مكة، والتي حفظها لنا الطبري¹، تعد من أقدم الوثائق التاريخية التي وصلتنا ومن أوثقها². غير أن مونتغمري وات يشكك في رواية هذه الرسالة ويعتبر أن عروة بن الزبير كان ينتمي إلى بيئة سياسية في الدولة الإسلامية وهي الحزب الحاكم أيام الرسول محمد والمؤلف من الثلاثي، أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، ثم حزب عائشة وطلحة والزبير الذي عارض عليا سنة 36هـ/656 م ومعاقبة معا، ثم الحزب المسؤول عن الثورة ضد الأمويين من سنة 62هـ/681م إلى سنة 72هـ/691م. لذلك يذهب إلى أن هذه الرواية لا تخلو من التحزب ويزداد شكه عندما يعتبر أن الأشخاص الذين رَووا هذه الرسالة كانوا يترددون على الأوساط القدرية المناهضة لبني أمية³. وهنا تطرح مشاكل انتقال المعلومة التاريخية وبالتالي مصداقيتها في علاقة بتقنيات انتقال الخبر والمعرفة بشكل عام، لأن كل ما ينسب إلى عروة في فترات متأخرة ليس بالضرورة يعود إليه⁴.

بينما يتساءل هشام جعيط عن مدى إمكانية تصديق هذه الرسالة أو اعتبارها قريبة من الصحة، ثم يتساءل، لماذا مثل هذه الرسالة إلى عبد الملك؟ لكنه يرجح أن عروة لم يكتب إلا بطلب من عبد الملك خليفة المسلمين، إرادة منه معرفة ماذا حصل بالضبط في قضية معاداة قريش للنبي وإلى أي مدى غمس بنو أمية أيديهم فيها⁵.

كما تعكس النصوص في مواقع عديدة هذا التوجه، فهذه الشخصية العلمية كانت تكتب بطلب من السلطة السياسية القائمة، حيث يورد الطبري رواية بإسناد لهشام بن عروة عن والده عروة بن الزبير تتعلق بفتح مكة،

¹ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1961، ج 2، ص 328-329.

² أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، وفيات الأعيان و إنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972، ج 3، ص 257-258.

³ مونتغمري وات، محمد في مكة، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1952، ص 267-268.

⁴ G. SCHOELER, "Foundation for a New Biography of Muhammad: The Production and Evaluation of the Corpus of Traditions from 'Urwah b. al-Zubayr", in Herbert BERG (ed.), *Method and Theory in the Study of Islamic Origins*, Leiden, E.J. Brill, (Islamic History and Civilization, vol. 49), Leiden, Brill, 2003, pp. 22-23.

⁵ هشام جعيط، المرجع المذكور، ص 207. ثم يربط جعيط ذلك بماضي الأمويين ويقول: "ألا وقد خبا الماضي بعد دخول الناس في الإسلام وكتب التاريخ في أسفل اللأوعي ولعل حركة ابن الزبير قد حيرت مطاعن وعيوبا ضد بني أمية".

فيقول: "حدثنا أبان العطار قال: حدثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان: أما بعد، فإنك كتبت إليّ تسألني عن خالد بن الوليد: هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر من أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبي... فأخبرت أنه قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن... وحدثت أن النبي قال لخالد والزبير حين بعثهما...¹ يتضح من خلال الرواية أن الكتابة تأتي في شكل إجابة عن تساؤلات تطرحها السلطة الأموية في الشام، وهي ناتجة عن إحراجات الواقع-واقع صدر الإسلام- ومساءلته للماضي، لارتباطه به من الناحية المرجعية- التأسيسية وكذلك رغبة في التأثير على الكتابة التاريخية والإحاطة بها. وهو ما تبرزه أيضا بعض النصوص الأخرى في مستويات متعددة ومنها ما ينسب لمسلم بن شهاب الزهري² تلميذ عروة بن الزبير، عندما يتكلم عن التدوين والمعرفة بشكل عام: "...كننا نكره أن يكتب عنا العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا أن لا نمنعه أحدا من المسلمين"³. وهو بالتالي تأكيد على سعي السلطة السياسية إلى السيطرة على المعرفة وتوظيفها سياسيا.

ولعل ما يذكره الزبير بن بكار يبدو على غاية من الأهمية في خصوص ارتباط التدوين بالعامل السياسي، وهو كذلك مهم لإنفراد ابن بكار بهذا النص، وهو أحد أعلام المعرفة من الزبيريين، فيذكر في إسناد لعمه مصعب بن عبد الله الزبيري: "قدم علينا سليمان بن عبد الملك حاجا

¹ محمد بن جرير الطبري، المرجع المذكور، ج 3، ص 55-56.

² عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة، 1969، ص 472، بالرغم من أن المصادر لا تقدم لنا الكثير من المعلومات حول هذه الشخصية العلمية، وإن وجدت فهي مقتضبة، إلا أن ما تذكره بعض الروايات قد يعطينا لمحة عن علاقة الزهري بالسلطة الأموية وعن مكانته الاجتماعية. يذكر ابن قتيبة: "وكان أبو جده عبد الله بن شهاب شهد مع المشركين بدرًا، وكان أحد النفر الذين تعاقدوا يوم أحد لئن رأوا رسول الله ليقتلنه، أو ليقتلن دونه؛ وهم عبد الله بن شهاب، وأبي بن خلف، وابن قمنة، وعنتبة بن أبي وقاص... وكان أبوه مسلم بن عبيد الله مع ابن الزبير... ولم يزل الزهري مع عبد الملك بن مروان ثم مع هشام بن عبد الملك. وكان يزيد بن عبد الملك استفضاه. وتوفي في شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومائة، ودفن بماله... والموضع الذي دفن به آخر عمل الحجاز، وأول عمل فلسطين، وبه ضيعته. ويذكر البلاذري في أنسابه (ج 10، ص 47-48): "قالوا: وكان الزهري سخيا لا يلبق شيئا، فاحتاج في بعض أيامه حاجة شديدة حتى لزم بيته، فجمع مولى له دراهم وأتاه بها وأشار عليه أن يشخص إلى الشام ويصرفها في نفقته ففعل، وأصاب مالا عظيما من الخليفة وولده، فلما قدم المدينة جعل يقسم ذلك المال في أقربائه وإخوته وجيرانه... ومات الزهري في ماله...".

³ البلاذري، المرجع المذكور، ج 10، ص 48.

سنة اثنتين وثمانين، وهو ولي عهد، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، فركب إلى مشاهد النبي التي صلى فيها، وحيث أصيب أصحابه بأحد، ومعه أبان بن عثمان، وعمرو بن عثمان... ثم أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سير النبي ومغازيه، فقال أبان: هي عندي قد أخذتها، مصححة ممن أتق به. فأمر بنسخها وألقى فيها عشرة من الكتاب، فكتبوها في رق، فلما صارت إليه نظر فإذا فيها ذكر الأنصار في العقبين، وذكر الأنصار في بدر، فقال: ما كنت أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل. فلما أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم، وإما أن يكونوا ليس هكذا. فقال أبان بن عثمان: أيها الأمير لا يمنعنا ما صنعوا بالشهيد المظلوم من خذلانه، إن القول بالحق: هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا. قال: ما حاجتي أن أنسخ ذلك حتى أذكره لأمر المؤمنين، لعله يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فحرق. وقال: أسأل أمير المؤمنين إذا رجعت، فإن يوافقه فما أيسر نسخه، فرجع سليمان بن عبد الملك فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال عبد الملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تعرّف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها. قال سليمان: فلذلك يا أمير المؤمنين أمرت بتخريق ما كنت نسخته حتى أستطلع رأي أمير المؤمنين. فصوّب رأيه...¹

تجمع المصادر على كون عروة بن الزبير من علماء المدينة السبعة²؛ إضافة إلى هذا السبق التأسيسي، فهو راو للأحاديث وموثق لها ومجمّع لمادة تاريخية، إذ كان أسلوبه يجمع بين الإسناد الذي يضيف الصبغة العلمية على الكتابة التاريخية، ثم الاهتمام بالوثائق المكتوبة. فقد رجع إلى الكتب التي أرسلها الرسول إلى بعض رؤساء القبائل والملوك³، كما أنه كان يستشهد بالآيات القرآنية وبالشعر عند استعراضه لأحداث وتواريخ مدينة ما⁴.

¹ الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي مكي العاني، عالم الكتب، الطبعة الثانية، بيروت، 1996، ص 275-276. ورد هذا النص عند الزبير بن بكار على هاته الشاكلة دون أية إشارة من المحقق.

² أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، د ت، ج 9، ص 163-164. وهؤلاء العلماء أو الفقهاء السبعة هم: القاسم بن محمد بن أبي بكر، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن الحارث بن هشام، وسعيد بن المسيب، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وسليمان بن يسار.

³ إبراهيم خليل، "عروة بن الزبير"، مجلة المورد، ج 5، 1975، ص 76.

⁴ نفس المرجع، ص 79.

لدينا الكثير من الروايات حول هذه الشخصية، تصف مكانته العلمية وسعة إطلاعها على علوم عصرها، وقد لخص أبو إسحاق الشيرازي قوله في عروة بن الزبير بالعبارات التالية: "العلم لواحد من ثلاثة: لذي حسب يزينه أو لذي دين يسوس به دينه أو مختلط بسلطان يتحفه بعلمه، ولا أعلم أحداً أشطر لهذه الأخلاق من عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز؛ كلاهما حسيب دين من السلطان بإزاء". ثم يذكر قول عمر بن عبد العزيز في عروة: " ما أحد أعلم من عروة بن الزبير". ويستعمل قول الزهري في عروة: "عروة بحر لا تكدره الدلاء"¹، وهو نفس ما نجده عند ابن سعد تقريباً عندما ذكر أنّ: "عروة بحر لا يُنْزَف"². واستعمال كلمة بحر في هذا المضمار تعني سعة الإطلاع على المعارف الموجودة آنذاك، وربما تتضاف إليها معاصرته للأحداث مما يجعله مطلعاً على تاريخ القرن الأول للهجرة، حيث عاش العديد من الأحداث وكان شاهداً عليها، لذلك كان تلقبها بالبحر تعبيراً على سعة الإطلاع من ناحية وعلى كونه قد مثل مصدر المعرفة التاريخية في تلك الفترة بالذات. وربما كان هو الوحيد الذي لقب بذلك لانفرادها بأشياء لم يكن يعرفها غيره. ويلخص ابن سعد وصفه لعروة في العبارات التالية: "كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالياً مأموناً ثباتاً". كما نعتز في طبقات ابن سعد على إشارة تفيد بأن عروة بن الزبير كانت له كتب في الفقه، إذ تقول الرواية في اسناد لهشام بن عروة: "حرق أبي يوم الحرّة كتب فقه كانت له، قال فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي"³، والأمر هنا متعلق بأحداث الحرّة (64هـ) في أيام يزيد بن معاوية، وهو ما يبين من جهة طبيعة العلاقة مع السلطة الأموية، ومن جهة أخرى القيمة المعرفية للرجل. رغم أن الأمور المتعلقة بالفقه في ذلك التاريخ تحديداً تطرح إشكالاتها.

يبدو الترابط إلى حدّ ما بنويّاً بين العلمي- المعرفي والاجتماعي، حيث تعبّر المعرفة عن موقع اجتماعي، فالمعرفة في الغالب مكانة لها أسسها ومرتكزاتها الاجتماعية، لذلك يمكن الرّبط بينها وبين المكانة الاجتماعية.

¹ أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، حققه وقدم له إحسان عباس، دار الراشد العربي، بيروت، 1981، ص 58.

² محمد بن سعد، المصدر المذكور، دار صادر، بيروت، 1960، ج 5، ص 181.

³ نفس المصدر، ص 179.

فما نجده من إشارة في الرواية الأخيرة حول عروة بن الزبير عند استعمال عبارتي "أهلي ومالي"، أي التأكيد على قيمة الأهل والمال، يحيل على الموقع الاجتماعي الذي له وزنه بالنسبة لهذه الشخصية الزبيرية، وهو ما يعكس إلى حد ما هذا الترابط بين الموقعين، بالرغم من أن المكانة الاجتماعية والرمزية لهذه الأسرة موروثه عن الفترة التأسيسية، فالزبير بن العوام يعدّ من أغنى الصحابة حسب أغلب المصادر¹. وربما ساهمت المكانة العلمية في الحفاظ على المكانة الاجتماعية وتدعيمها، وبالتالي يبدو من المهم طرح التساؤل: إذا كانت المعرفة تقف في الغالب في حدود ما هو اجتماعي أو تبنى على ما هو اجتماعي (في مستوى التواصل) فهل يعكس هذا بالضرورة نوعيتها أو الحاجة الاجتماعية والسياسية إليها؟

II- تداول المعرفة عند الزبيريين: ترسخ المكانة العلمية والاجتماعية

في إطار تواصل تقاليد المعرفة داخل هذه السلالة أو ما يمكن أن نسميه بالنمذجة الاجتماعية أي ما يشبه الاختصاص الأسري، برز العديد من الزبيريين في الكتابة وحمل المعرفة ورواية الأخبار. فمنهم من لم يخل مصدر من المصادر من اسمه والإسناد له في كل خبر وفي كل رواية. هشام بن عروة بن الزبير هو أحد أهم شخصيات الإسناد في مصادرنا، ومن المؤكد أنه قد نقل الكثير عن والده حتى وإن لم يصلنا إلا بعضها². يوصف في مصادرنا بكونه كان فقيها نبيلًا وكان خطيبًا جلدًا³. يعبر هذا الاستعمال لعبارة "فقيه"، "نبيل"، "خطيب"⁴، عن المكانة العلمية⁵ من جهة وعن الحظوة الاجتماعية لمثل هذه الشخصية من جهة أخرى؛ عبارتان تعبران عن الصفة العلمية تتوسطهما عبارة، إن كان من الصعب ضبط مدلولها الدقيق إلا أنها لا تخلو من الدلالة على الموقع الاجتماعي،

¹ جابر البلاذري، المصدر المذكور، ج 9، ص 425؛ محمد بن سعد، المرجع المذكور، ج 3، ص 110؛ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن بن علي)، مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، بيروت، 1965، ج 3، ص 76-77.

² A.-L. DE PRÉMARE, *Op. cit.*, p. 14.

³ جابر البلاذري، المصدر المذكور، ج 4، ص 445.

⁴ جمال الدين بن منظور، المرجع السابق، مادة "خطب"، ج 2، ص 381: "وذهب أبو إسحاق إلى أن الخطبة عند العرب الكلام المنثور المسجع، ونحوه... والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر... ورجل خطيب: حسن الخطبة".

⁵ الملاحظ أن كلمة خطيب لا تحيل بالضرورة على المكانة العلمية، لكنها في الغالب مرتبطة بها وفق ما يذكره ابن منظور.

وهو دليل على طبيعة البنية الاجتماعية المانحة لقيمة الفرد والمحددة لدوره ووظيفته الاجتماعية، خاصة عندما نجد عند مصعب الزبيري أن هشام بن عروة كان في صحابة المنصور، وتوفي ببغداد في سنة 145هـ/762م أو 146هـ/763م، وتقول الرواية: "ومات هشام عند المنصور في صحابته ببغداد، في سنة خمس أو ست وأربعين ومائة"¹. إن هذا الالتصاق بين الوظيفي والبنوي يعكس إلى حد ما تركيبة وتصورا لتوزيع الأدوار والوظائف داخل المجتمع. بقي أن نقول بأننا لا نملك الكثير من المعلومات عن هذه الشخصيات الزبيرية، فمصادرنا شحيحة في الغرض ولا تذكر لنا إلا شذرات عنهم مع غياب تواريخ محددة لسنوات الوفاة أو لاعتلاء المناصب، وهو ما يحرمنا من ثبوت المسار التطوري للشخصية التاريخية ومختلف تقلباتها حتى نتمكن من تحديد ظرفية ممارسة هذه الوظائف و بالتالي نوعية العلاقة مع السلطة السياسية القائمة.

تتالي الأسماء المنتمية لنفس الأسرة والأخذة بالتقاليد باعتبارها جزءا من تراثها وتأكيدا لتجذرها في المعرفة والنسب. عبد الله بن عروة بن الزبير يذكره مصعب الزبيري فيقول عنه: "من رجال آل الزبير يشبهه بعبد الله بن الزبير في لسانه وجلده". ثم يذكر ابنه عمر بن عبد الله ويقول أنه كان فقيها، وكذلك عثمان بن عروة: "كان من وجوه قريش وساداتهم"². مع التأكيد على أنه روى عن هشام بن عروة، وهو تأكيد على المصدر في علاقة بالمرجعية العلمية والانتساب إلى المؤسسين باعتبارهم حجة في مجالهم المعرفي. وتكرر عند الزبيري عبارة "وجوه آل الزبير" أو "وجوه قريش" دون أن يعطينا تدقيقا لذلك، ويبدو أن المقصود بذلك الوجاهة الاجتماعية خاصة عندما يستعمل عبارة "ساداتهم"، ومفهوم السيادة عند العرب يشير إلى التراتبية الاجتماعية بالإضافة إلى الميزات الشخصية التي يفترضها الموقع. فالسيادة تحيل على موروث قديم "جاهلي" لدى العرب ومن بين معانيها القيادة وإن كانت بالمعنى الرمزي لما تمثله من سلطة رمزية، حتى وإن لم تكن تمثل سلطة قهرية³.

¹ أبو عبد الله المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف، بيروت، د ت، ص 249.

² نفس المصدر، ص 246.

³ هشام جعيط، الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1991، ص 15.

أما يحيى بن عروة فيقول عنه البلاذري بأنه "كان له علم بالنسب والناس"¹ ثم يذكر حادثة قتله بعد أن سجنه عامل المدينة إبراهيم بن هشام في عهد هشام بن عبد الملك، لنزاع كان بينهما. وهو ما يبين طبيعة العلاقة مع السلطة الأموية التي بقيت تحتفظ ببعض العداء التاريخي في التعامل مع الزبيريين.

تسعدنا كتب الأنساب ببعض المعطيات الدقيقة حول هذه الأسرة، فابن حزم الأندلسي يقدم لنا مثلاً في **جمهرة أنساب العرب** قائمة كاملة في أبناء عروة بن الزبير في شكل شجرة نسب، فكلهم محدثون وفقهاء ورواة وأغلبهم قد انتقل إلى بغداد، مثل عامر بن صالح بن عبد الله بن عروة، الذي يذكر ابن حزم أنه كان فقيهاً محدثاً راوية نسابه شاعراً ومات ببغداد أيام هارون الرشيد². وهي كما يبدو شخصية جامعة لأنواع مختلفة من المعارف، لكن رغم اتساع مجال المعرفة ضاقت المعلومة عن حياة الرجل وعن مسيرته العلمية، فحتى تاريخ وفاته قد امتد على كامل زمن الرشيد، وهو ما يمكن أن يدفعنا إلى التساؤل حول ما يبدو تناقضاً بين القيمة العلمية لهذه الشخصية وبين غياب تواريخ ضافية عن حياتها. وهنا يطرح السؤال: هل أن ما ذكر في الرواية هو من باب التضخيم الذي لا يستند لأسس أو معطيات دقيقة، أو هو ربما إقصاء مقصود قد تكون له مبرراته؟

لا نكاد نعثر تقريباً في سلالة عروة بن الزبير عن لم يكن محدثاً أو راوية أو فقيهاً أو نساباً وذلك بإجماع كل كتب النسب والطبقات. فحتى وإن كان هناك بعض الاختلاف حول بعض الشخصيات فهو في جوانب أخرى وليس في الجانب العلمي-المعرفي، ما عدا اثنان من أبناء عروة، تقول عنهما المصادر، أنهما لم ينقلا عن أبيهما هذا الموروث. وهما عبيد الله ويقول عنه الزبير بن "لم يحفظ عن أبيه شيئاً"، ومصعب بن عروة "لم يعقل عن أبيه شيئاً"³. وهو تأكيد على أهمية التراث الأسري أو ما يمكن أن ننته به عبارة نضعها على منوال عبارة كرسثيان ديكوبار، فنقول أنه توريث للمعرفة (Patrimonialisation du savoir). وقد ورد هذا المصطلح عند الباحث

¹ جابر البلاذري، المصدر المذكور، ج 4، ص 446.

² أبو محمد علي الأندلسي ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف مصر، القاهرة، 1971، ص 124.

³ مصعب الزبير بن، المرجع المذكور، ص 248.

المذكور في سياق تحليله لظاهرة توريث السلطة (Patrimonialisation du pouvoir) واحتكارها عند الأمويين¹.

لم تنحصر تقاليد المعرفة في سلالة عروة بن الزبير بل إن أهم من برزوا في علم النسب وفي رواية الأخبار هم من فروع أخرى من الأسرة الزبيرية، وخاصة من نسل عبد الله بن الزبير، وهو ما يؤكد أن مفهوم الأسرة أو الانتماء إلى الأسرة لا يقتصر على العدد المحدود من الأفراد أي الأب وأبناؤه، هذه المجموعة الضيقة، وإنما هي وحدة اجتماعية أكثر امتدادا لها تراث مشترك وتاريخ مشترك.

فخبيب بن عبد الله بن الزبير - وهو أكبر أبناء عبد الله بن الزبير - كان له حضور بارز في أحداث تاريخية هامة، مثل حصار عبد الله بن الزبير في مكة، وهو الحصار الثاني من قبل الحجاج بن يوسف الثقفي، وتناقلت المصادر ذلك بشكل مفصل واختلفت حوله. لكن إضافة إلى هذه المساهمة الفعلية في التاريخ يكشف مصعب الزبيري عن الجانب العلمي من حياته، وإن بشكل موجز، ملخصا مكانته العلمية فيقول: "كان يعلم علما كثيرا مع فضل له وصلاح". ورغم أن ندرة المعلومات حول هذه الشخصية تطرح العديد من الإشكاليات، إلا أن الزبيري تعرض لما هو سياسي عند ذكره لوفاته، بعد أن سجن وضرب من طرف عمر بن عبد العزيز عامل المدينة في خلافة الوليد بن عبد الملك²، وهو ما أثار نوعا من اللبس حول هذه الحادثة خاصة في علاقة شخصية عمر بن عبد العزيز لأن الإشكال اعتبر سياسيا. وهذه الشخصية تعتبر الثانية من بين الزبيريين التي تقتل سجنا في ظل حكم الأمويين، وهو ما يبين أن العلاقة قد بقيت متوترة بين الطرفين، وربما لأن التاريخ مازال حيا في الأذهان والفتنة الزبيرية ليست بعيدة زمنيا. لكن ذلك سوف يتكرر فيما بعد مع العباسيين مع خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير، ويتعرض البلاذري لهذه الحادثة بقوله: "وكان قد خرج مع محمد بن حسن بن علي بالمدينة، فقال أبو جعفر أمير

¹ Christian DÉCOBERT, « Notule sur le patrimonialisme omeyyade », in Antoine BORRUT et Paul M. COBB (ed.), *Umayyad Legacies, Medieval Memories from Syria to Spain*, (Islamic History and Civilization, Studies and Texts, vol. 80), Leiden, Brill, 2010, pp.229.236.

² مصعب الزبيري، المصدر المذكور، ص 240.

المؤمنين المنصور: ما آل الزبير وآل علي؟ وأخذه أبو جعفر فقتله وصلبه"¹. وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه الأسر ومكانتها لما تمثله من خطر على السلطة العباسية القائمة.

كما يتعرض الزبير لابنه الزبير بن خبيب بن عبد الله، ويتدخل في الرواية بقوله: "سمعت أبي يقول (المقصود عبد الله بن المصعب والي المدينة) قال لي أمير المؤمنين: أذكر لي رجلا من المدينة من قريش ممن له فضل منقطع، قال: فقلت عمارة بن حمزة بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. قال أين أنت من ابن عمك الزبير بن خبيب. قال قلت له: إنما سألتني عن الناس ولو سألتني عن أسطوانة من أساطين المسجد لقلت لك الزبير بن خبيب"².

قد تكون هذه الشخصيات الزبيرية قد لعبت فعلا دورا هاما و كانت فاعلة في واقعها التاريخي لكن ربما ليس بالشكل الروائي الذي قدم. فالرواية تنجح إلى شكل من المبالغة في تحديد صورة بعضهم، وقد يتهاوى العديد منها أمام النقد التاريخي وأمام موضوعية المؤرخ، لكن ذلك لا يمكن أن يكون حاجزا أمام نصيبتها من الحقيقة. وقد تكون هذه الشخصيات قد تعرضت إلى إقصاء أو تهमيش بسبب انتماءاتها ومواقعها الاجتماعية في مقابل انتماءات اجتماعية أخرى أو أسر أخرى ترى في وجودهم ضربا لشرعيتها السياسية المبنية على تاريخ التأسيس، تاريخ الدين والدولة. ومن المفيد القول إن الزبير لم ينفرد لوحده بذكر هذه الشخصية، فالخطيب البغدادي يذكر وفود الزبير بن خبيب على المهدي وعلى هارون الرشيد³، وهو متفق مع ما يذكره الزبير لكن هذا الأخير يضيف بأن المهدي كان "يوليه القسم على أهل المدينة والعرض لهم في العطاء وكان خاصا به (المهدي) وبموسى من بعده وبهارون ومات في خلافته"⁴. فالعلاقة بالسلطة تؤكد إلى حد ما المكانة العلمية للشخص، وحتى وإن كان ذلك ليس بالضرورة دليلا على الوزن العلمي فهو على

¹ جابر البلاذري، المصدر المذكور، ج 5، ص 440.

² مصعب الزبير، المصدر المذكور، ص 240.

³ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ج 9، ص 492.

⁴ مصعب الزبير، المصدر المذكور، ص 242.

الأقل دليل على الانتماء إلى فئة معينة. لكن غياب التواريخ الدقيقة قد يضيف نوعاً من الضبابية على هذه الشخصيات الزبيرية ولا يسمح بتتبع مختلف علاقاتها بالسلطة السياسية القائمة.

وباعتمادنا على مصدرنا الوحيد، مصعب الزبير، نعثر على عدّة أعلام آخرين، من نفس نسب عبد الله بن الزبير، فهو الوحيد الذي يتتبع مختلف فترات حياتهم ويذكر لنا شذرات من تاريخهم. فعامر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير يوصف بكونه "من سروات آل الزبير وولدائهم في العقل والبيان". وفي سياق رده عن سؤال حول علاقته بخصومه في العلم يقول: "ما خاصمت أحداً قط إلا قضي لك عليه. فقال: والله إنني ما خاصمت في شيء قط فيه شك عند أهل العلم". وعبارة "أهل العلم" هنا تدل على الإطلاع والإلمام من جهة وعلى الانتماء إلى فئة العلماء أو ما يمكن أن نسميه بأرباب القلم من جهة أخرى. ورغم أن هذا الشاهد لا يكفي للقول بالانتماء لهذه الفئة - أهل العلم - لكنه كذلك لا يمكن أن يكون مسقطاً أو ملصقاً حتى وإن كان الزبير يعد من نفس الأسرة، فإدعاء العلم شيء لا يمكن أن يقتل بمجرد إيراد اسم من الأسماء في إحدى الروايات.

وهكذا تتوالى الأسماء من الزبيريين تباعاً منتسبة إلى حقول مختلفة من المعرفة لكنها تلتقي في مجالات معينة مثل رواية الحديث و الأخبار والشعر، معبرة عن ثقافة عضوية ومحورية تجسد المشترك الثقافي- الاجتماعي في إشارة إلى وحدة المجتمع والتاريخ.

فهشام بن حمزة بن عبد الله بن الزبير "كان من القراء"، وعبارة القراء ترد هكذا دون تحديد، ويبدو أن المقصود هو حفظة القرآن أو الفقهاء دون الإشارة إلى خصوصية أخرى. ويحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير "هو الذي كان يروي عنه الحديث محمد بن إسحاق"، وذلك يعتبر في غاية الأهمية باعتبار أن محمد بن إسحاق هو من أعلام السيرة النبوية قبل ابن هشام، وهو دليل على قيمة هذا المصدر الزبيرى كرافد من روافد الكتابة التاريخية. كما أن عباد بن عبد الله بن الزبير كان يروي عن عائشة¹. فعندما نتتبع من شجرة نسب سلالة عبد الله بن الزبير تقريباً لا نجد أحداً ليس بمحدث أو راوية أو نسابة، وإن كان الزبيرى يبالغ أحياناً أو يضخم من

¹ نفس المصدر، ص 243 و 241.

صورة بعض الزبيريين في إطار إحياء تراث أسري، أو للإشارة إلى استحقاق تاريخي وشرعية مفقودة أو مستتلة، فربما يعبر الانحياز عن تعويض رمزي لذاك المجد المفقود، وكل ذلك قد يفهم في إطار المسار التاريخي الذي عرفته هذه الأسرة.

تتفق جميع المصادر بشكل قد لا يقبل الشك، أن الأسرة الزبيرية قد حافظت على مكانتها الاجتماعية خلال الفترة المروانية والعباسية، فبعد القضاء على الحركة الزبيرية تراجع الطموح السياسي والهاجس القيادي عند الزبيريين ولم تعد لهم طموحات في الوصول إلى السلطة، ولم يبق لهم إلا التعامل مع رجال السياسة سواء كانوا أمويين أم عباسيين، وهو ما من شأنه أن يدفعهم أكثر للاهتمام بالعلم والانصراف إلى تحصيل المعرفة ليبرز من بينهم العديد من العلماء في الأنساب والحديث والفقهاء.

يكثر الحديث عن الزبيريين في بغداد ويلتصق جزء من تاريخهم بهذه المدينة باعتبارها قطبا علميا جاذبا لكل من كان عالما أو متعلما. ويتعرض الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد لشخصية زبيرية تبدو لامعة، وهو الزبير بن أحمد بن سليمان بن عبد الله بن عاصم بن المنذر بن الزبير بن العوام، قائلا: "كان أحد الفقهاء على مذهب الشافعي وله تصانيف في الفقه منها كتاب الكافي وغيره. وقد قدم بغداد وحدث بها عن داود بن سليمان المؤدب ومحمد بن سنان القرّاز وإبراهيم بن الوليد الجشّاش ونحوهم..."¹. لا يسمح لنا التقصي التاريخي بالافتراض أو التصور بعيدا عن الوثيقة التاريخية فهي المحدد لجزء كبير من الواقع التاريخي، لذا فإن ما يذكره الخطيب البغدادي في خصوص هذه الشخصية الزبيرية يدل على قيمة علمية للرجل. فهو ليس مجرد فقيه، بل له "تصانيف في الفقه". لكن الإشكال يبقى هو نفسه، وإن كان هذا في الحقيقة لا يخصّ الزبيريين لوحدهم وإنما يخص بدايات التدوين في الفترة الإسلامية الأولى، لماذا لم تصل هذه الكتب؟ ما الذي عطل وصولها؟ وإذا كانت هذه الشخصيات الزبيرية على هذا القدر من الأهمية العلمية فلماذا بقيت مغمورة وغير معروفة؟ قد تكون هناك إجابات جاهزة وهي منطقية إلى حد ما، خاصة في علاقة بالسلطة السياسية سواء كانت أموية أم عباسية، لكنها لا تفي بالغرض ويبقى المخفي فيها هاجسا مؤرقا.

¹ الخطيب البغدادي، المصدر المذكور، ج 9، ص 492.

تصل الكتابة عند الزبيريين ذروتها في بداية القرن الثالث هجري، حيث يظهر علمان من أعلام الإخبار والنسب وهما مصعب بن عبد الله بن المصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام (ت 236هـ/850م) وابن أخيه الزبير بن بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير (ت 256هـ/869م).

يبدو مصعب الزبيري أكثر شهرة من ابن أخيه، إذ نلاحظ أنه مصدر هام بالنسبة لجميع المصادر التي كتبت في القرن الثالث بل يعد من أقدمها وأوثقها¹. ويصفه البغدادي بأنه "كان عالماً بالنسب عارفاً بأيام العرب"، ويضيف بكونه أفة قريش في النسب². بينما يقول عنه صاحب الفهرست بأنه راوية أديب محدث وشاعر³. لكن رواية أخرى عن مصدر زبيري، وهي رواية ابن أخيه الزبير بن بكار، تقول عنه: "وكان مصعب بن عبد الله وجه قريش مروءة وعلماً وشرفاً وبيانا وجاهاً وقدراً"⁴. وهنا نكتشف جانباً من الانحياز والتعاطف في التأكيد على الشرف والمروءة في معناها الاجتماعي وجوانب ثقافية رمزية، وهو ما يعكس اللاوعي التاريخي عند الزبيريين في شيء ربما من التعطش للاعتراف بالشرعية والشرف الاجتماعي التاريخي المرتبطين بلحمة التأسيس. وهنا تختلط الكتابة التاريخية بالتراث الأسري أو التاريخ الذاتي، لأن الأمر هنا يتجاوز مجرد التعريف بالذات إلى الأهمية التاريخية التي تنزلق معطياتها في ثنايا الحديث عن تاريخ العلم والمعرفة. يندافع القول في هذا السياق حتى يأخذ شكل المدح، فنجد ما هو كالتالي: "عبد الله بن مصعب، كان مدره⁵ قريش وخطيبها، وواحدها شرفاً وقدراً وصوتاً وعناية بهم وبجميع أهل المدينة". ويستشهد الزبير بن بكار بقول مالك بن أنس في مصعب: "المبارك، يتكلم

¹ Charles PELLAT, « Mus'ab al-Zubayrî », *EP*, t. 7, pp. 648-649.

² الخطيب البغدادي، المصدر المذكور، ج 15، ص 138.

³ أبو الفرج محمد ابن النديم، الفهرست، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996، ص 176.

⁴ الزبير ابن بكار، جمهرة نسب قريش وأخبارها، شرح وتحقيق محمود محمد شاكر، عالم الكتب، بيروت، دت، ص 124.

⁵ جمال الدين ابن منظور، المصدر المذكور، مادة "درة"، ج 3، ص 151-153: "درة على القوم هجم... المذرة السيد الشريف، سمي بذلك لأنه يقوى على الأمور ويهجم عليها. والمذرة المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال، وقيل هو رأس القوم والمدافع عنهم... المذرة زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه".

في أمر أهل المدينة في العطاء والقسم"¹، وفي ذلك تأكيد على علاقة مصعب بأهل المدينة، وهي إحالة على المرجعية الزبيرية ككل.

يبقى من المهم الإشارة إلى أن والد مصعب الزبيري، وهو عبد الله بن المصعب بن ثابت بن عبد الله، كانت تربطه علاقات بالبلاد العباسي حيث: "كان في صحابة المهدي... فلم يزل في صحابته وصحابة موسى وصحابة هارون الرشيد"². وقد تقلد وظائف في زمنهم إذ: "استعمله المهدي على اليمامة، واستعمله الرشيد على المدينة، ثم ولاه اليمن"³. فالولاية بوصفها دورا سياسيا دليل على العلاقة الجيدة بالسلطان وهي كذلك تعبر عن موقف إيجابي من السلطة المركزية ومن تصوراتها الاجتماعية والسياسية.

أما في ما يخص الجانب العلمي لمصعب الزبيري، يشير ابن النديم⁴ إلى أنه ألف كتابين في النسب: **النسب الكبير** و**كتاب نسب قريش**، لكن الأول لم يصلنا، وإن كان ذلك لا يعني عدم الاستفادة منه أو استعماله - إن وجد فعلا - في مؤلفات أخرى، خاصة إذا وجد في نفس الأسرة من هم من حملة المعرفة أو مهتمين بالشأن العلمي عموما. سمحت إذا هذه المراكمة العلمية داخل نفس الأسرة لمصعب الزبيري أن يؤلف بين ذلك الموروث الشفوي وينقله إلى المكتوب ويوثق هذه الروايات، في شكل خلاصة لمعارف العصر ومتطلبات الحضارة، ومساهمة في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية لا سيما في القرن الثالث هجري القرن الذي ازدهرت فيه الكتابة والتدوين والترجمة بامتياز. وهي كذلك محاولة جادة للتعريف بجزء هام من هذا الموروث التاريخي وإعادة إنتاج المعرفة للحفاظ على الموقع الاجتماعي.

وغير بعيد عن الفترة التي عاش فيها مصعب الزبيري برز ابن أخيه الزبير ابن بكار (ت 256هـ/869م)، حيث كان من أبرز علماء المدينة في

¹ الزبير بن بكار، **المصدر المذكور**، ص 124.

² مصعب الزبيري، **المصدر المذكور**، ص 242 : "كان عبد الله بن المصعب بن ثابت في صحابة المهدي، صحبه سنتين حين قدم المهدي المدينة، وجلس الناس يعطيهم الأموال، يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار، ويكسوه سبعة أثواب؛ فأصبح ذلك العام عبد الله بن المصعب؛ فلم يزل في صحابته وصحابة موسى وصحابة هارون الرشيد، حتى مات سنة أربع وثمانين، ومات بالرقعة".

³ **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

⁴ محمد بن النديم، **المصدر المذكور**، ص 176.

النصف الأول من القرن الثالث¹، وقد يبدو من المهم أن نشير إلى أن والده أبا بكر بن عبد الله (المعروف ببيكار) كان والياً على المدينة لمدة ثلاثة عشرة سنة في خلافة هارون الرشيد². وكما سبق في خصوص عديد الأعلام من الزبيريين، كانت الإشارة إلى الموقع الاجتماعي عبر التركيز على مفهومي الشرف والجاه، أمراً ضرورياً وملزماً لهذه الشخصيات. وقد قال في بكار ولده: "كان أبو بكر بن عبد الله بن مصعب ناب قریش ومدرهها شرفاً وبيانا ولسانا وجاهاً وأبهة، وحداً عليها وبراً بها وحسن أثر عندها"³. ترد هذه الرواية في شكل استشهاد بقيمة هذه الشخصية التي تبدو وكأنها ممثلة لقریش لدى السلطة العباسية ومنها تستمد شرفها وجاهها.

ويتعرض صاحب الفهرست للزبير بن بكار فيقول عنه: "إخباري، أحد النسابين، وكان شاعراً صدوقاً راوية نبيل القدر"، كما يذكر علاقته بالبلاط العباسي، حيث ولي قضاء مكة وتوفي وهو قاض عليها وفق ما يذكره ابن النديم، ويبقى تاريخ توليه هذه الوظيفة غير محدد ولا تسعفنا به المصادر. كما يذكر ابن النديم أنه زار بغداد عدة مرات، وكانت آخر زيارة له في سنة 253 هـ. وزيارته لبغداد تبدو من الأهمية بمكان لما تمثله هذه المدينة من وجهة علمية هامة لا تخفى على أحد. وكان من علامات قرينه من السلطة السياسية في بغداد وحظوته في البلاط العباسي، أن أولاه المتوكل رعاية خاصة حين اختاره مؤدباً لولده، وهو ربما أبلغ درجات التقرب السياسي. فما كان منه إلا الردّ على هذا الاختيار بما هو أجمل منه، معرفياً، فسمى أحد كتبه، وهو **الأخبار الموقفات**، باسم ولي العهد الأمير الموفق ولد الخليفة كما يذكر ابن النديم⁴. فاقتران المعرفة بالسلطان يتجاوز المستوى الوظيفي وإنما يلتصق بالأسرة الحاكمة، لتصبح في خدمتها أو تابعة لها. فإن

¹ S. LEDER, « Al-Zubayr B. Bakkâr », *EP*, t. 11, pp. 595-596.

² مصعب الزبيری، المصدر المذكور، ص 242.

³ الزبير بن بكار، المصدر المذكور، ص 163.

⁴ محمد بن النديم، المصدر المذكور، ص 177. ويذكر ظهير الدين علي بن محمد ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، دار إقرأ، الطبعة الأولى، 1991، ص 161، ما يلي: "وولى (الخليفة المعتمد على الله) أخاه أبا أحمد الموفق العهد وحارب الرّج سنين كثيرة وصابرهم، ولما ظفر بهم لقبه أخوه المعتمد على الله الناصر لدين الله، وكان يُخطب له بلقبين على المنابر، يقال: "اللهم أصلح الأمير الناصر لدين الله أبا أحمد طلحة الموفق بالله ولي عهد المسلمين أبا أمير المؤمنين". وتوفي أبو أحمد طلحة هذا في يوم الخميس ثاني رجب سنة ثمان وسبعين ومائتين ولم ينل الخلافة". وتجدر الإشارة إلى أن هذا اللقب "الموفق" هو لقب خليفتي لا يسند في العادة إلا عند اعتلاء منصب الخلافة، وهو ما يطرح تساؤلاً حول هذا الاستثناء.

توضع المعرفة وحاملها على ذمة السلطة السياسية يعني أن المعرفة في النهاية هي تصور سياسي أو ما يمكن أن نسميه بسياسة المعرفة، أي أن تصبح المعرفة معبرة عن توجهات محددة للسلطة السياسية.

وفي شكل اعتراف مسبق بكفاءة علمية مميزة يذكر الخطيب البغدادي إشادة مصعب الزبير بن بكار أخيه، فنقول الرواية: "إذا بلغ أحد منا فسيلنج، يعني الزبير بن بكار"¹. ولئن كانت الرواية تميل إلى الافتراض أكثر منها إلى الاستشراق والتطلع للمستقبل العلمي للأسرة الزبيرية، إلا أن ذلك يعكس وعي مصادرنا بهذا التسلسل المعرفي داخل سياق الأنساب وإدراكهم لإشكالية انتقال المعرفة بشكل عام. وهو ما يجعل الرواية تتناسب مع سياق التوارث والترابط بين الأجيال داخل نفس الأسر.

أما من ناحية التأليف والإنتاج المعرفي تبدو مساهمة الزبير بن بكار ملحوظة والتحصيل العلمي ثابتاً. فحسب ابن النديم تفوق مؤلفات الرجل الثلاثين كتاباً²، لم تصلنا في أغلبها أو لنقل كلها وإنما وصلنا منها ما هو معروف، أي كتاب **جمهرة نسب قريش وأخبارها** الذي بدوره لم يصلنا كاملاً بل ضاع جزء كبير منه، وكتاب **الأخبار الموفقات** الذي سبق ذكره.

وهكذا يكون الزبير بن بكار قد لخص وجمع ما تراكم من علم وروايات وأخبار بفضل انتمائته الأسري، فقد أخذ عن عمه مصعب الزبير بن بكار العديد من المعلومات والروايات وربما مؤلفات لم تصلنا، وبالتالي يمكن القول أن الأسرة بوصفها مؤسسة وآلية اجتماعية قد مثلت إطاراً ملائماً للحركة العلمية-الثقافية إلى جانب الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته.

¹ الخطيب البغدادي، المصدر المذكور، ج 9، ص 489.

² محمد بن النديم، المصدر المذكور، ص 177-178: "كتاب أخبار العرب وأيامها، كتاب نسب قريش وأخبارها، كتاب نوادر أخبار النسب، كتاب نوادر أخبار النسب، كتاب الأحلاف، كتاب الموفقات في الأخبار، كتاب مزاح النبي، كتاب نوادر المدنيين، كتاب النحل، ويقول عنه (رأيتُه بخط السكري)، كتاب العقيق وأخباره، كتاب الأوس والخزرج، كتاب وفود النعمان على كسرى، كتاب إغارة كثير على الشعراء، كتاب أخبار ابن ميادة. ومن خط ابن الكوفي، أخبار حسان، أخبار الأحوص، أخبار عمر بن أبي ربيعة، أخبار أبي دهيل، أخبار جميل، أخبار نصيب، أخبار كثير، أخبار أمية، أخبار العرجي، أخبار أبي السائب، أخبار حاتم، أخبار عبد الرحمن بن حسان، أخبار هدية وزيادة، أخبار توبة وليلى، أخبار ابن هرمة، أخبار المجنون، أخبار القارئ، أخبار بن الدمينية، أخبار عبيد الله بن قيس الرقيات، أخبار أشعث".

خاتمة:

يبدو من المهم أن نشير في النهاية إلى أهمية هذا الترابط النبوي بين المكانة الاجتماعية والمكانة العلمية في خصوص هذه الأسرة، فباضمحلال الكتابة والتأليف، أي غياب الدور العلمي-المعرفي، اختفت هذه الأسرة وانتهى دورها المعرفي والسياسي ولم نعد نجد لها ذكرا في المصادر. وبناء على ذلك يمكن القول بأن الأسرة الزبيرية قد نجحت، لما يقارب قرنين من الزمن، في إرساء تقاليد معرفية مكننت أجيالا متعاقبة من الزبيريين من الاضطلاع بأدوار معرفية هامة سواء مع الأمويين أو فيما بعد مع العباسيين أين سينقلدون مناصب سياسية بفضل هذه المكانة العلمية المتميزة. كما تميز المسار المعرفي لهذه الأسرة بالمراكمة والتطور مما جعل مساهمتهم في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية جدّ هامة، حتى وإن كانت المؤلفات الزبيرية ليست بالحجم الذي يضاهاي مكانة هذه الأسرة، وربما كان ذلك لأسباب مختلفة لا تجيبنا عنها المصادر وإنما يمكن للمؤرخ أن يتصورها ويعيد تركيبها. كما أن للمعطي السياسي العام والعداء التاريخي الموروث دوره في خصوص كتابة تاريخ هذه الأسرة، إلى جانب عوائق انتقال المعرفة بشكل عام في تلك الفترة من التاريخ العربي الإسلامي. ومن جهة أخرى وبشكل مواز للمعرفي والثقافي، فإن الأسرة باعتبارها مؤسسة اجتماعية عموما، ولا سيما الأسر الشريفة أو الأسر ذات العلاقة بها، كانت في إطار المنطق السياسي في القرون الأولى للإسلام تُعتمد كآلية في انتقال السلطة السياسية بحكم منطق التوارث داخل رابطة الدم الواحدة، الأمر الذي يجعلها تُعتمد كذلك كآلية في مراقبة المجال السياسي، لارتباطها سياسيا بالأسرة الحاكمة من ناحية وارتباطها بنفس المنطق المسير لمؤسسات الدولة والمنظم لاشتغال آلية السلطة السياسية من ناحية أخرى.